السلطة الروحية وكاريزما الولي من خلال المختار من الرحلات الحجازية من الجزائر في العهد العثماني –قراءة تاريخية انتروبولوجية–

أ/سعاد لبصير/ المدرسة العليا للأساتذة/ قسم التاريخ والجغرافيا

ملخص :

تعبر شخصية الولي عن رمزية دينية ذات ابعاد متعددة ، حيث يمكن التعامل معها للكشف عن الذهنية الشعبية الظاهرة الاجتماعية ،السلطة الروحية وحتى البنية التاريخية ، كونا نمط متكرر عبر العصور انتشر في الأوساط الشعبية و اخذ صبغته لذلك أصبحت ظاهرة زيارة الاولياء و التبرك بهم من مرادفات الدين الشعبي،و كذا من العادات و التقاليد المميزة للمجتمعات الإسلامية عامة والعربية بصفة خاصة ،و قد حفلت الرحلات الحجازية من الجزائر في العهد العثماني بأمثلة متعددة عن تلك الممارسات الشعبية ذات النمط الديني والبعد الاجتماعي ،و من هذا المنظور أخذت صفة البنية التاريخية التي تعكس الهويه الثقافية .

summary

The pious man is a character who expresses religious symboles of multiple dimentions ;that dealt with caube to reveal the popular mind ,the social phenomenon,the spiritual power and even the historical structure, as being a frequent pattern witch took a popular aspect ;so getting a visit to pious man to get their blessing became a beind of popular religion

الكلمات المفتاحية:

الولي–الكرامة –الزيارة–الخوارق–السلطة الروحية–الكاريزما–الدين–

مقدمة:

لا جدال في أن البحث التاريخي يقتضي التعامل مع الوثائق والمصادر المتنوعة الانتماء والأنماط ،ولعل من أهم المضان التي تثير الفضول لدى الباحثين بمختلف

توجهاتهم الأدبية منها، أو الجغرافية وحتى التاريخية والأنثروبولوجية الخطاب الرحلي ،باعتباره يعبر عن تجربة إنسانية حولها صاحبها إلى نص حول مناسبة اجتماعية أو دينية أو ظاهرة ثقافية، وهو ما لمسناه في إحدى أنواع الرحلات وهي الرحلة الحجازية ذات النمط الديني التي تعبر عن فن نثري يقدم تصور شمولي للأدب وتفسير متكامل حول مختلف البنى التاريخية.

ضمن هذا الاتجاه كان التعامل مع الخطاب الرحلي إلى الحجاز كنص معرفي ومخزون دلالي تاريخي ،ومجالا دراسيا متجددا غني بمنطلقات فكرية وأطر منهجية وحتى طبقات رسوبية قابلة للتحليل والتفسير والتنظير، أي التعامل معه كلبنة للدراسات التاريخية أو كمصدر تاريخي يزودنا برصيد معرفي شمولي، وعلى هذا الأساس كان اختيارنا للموضوع: "السلطة الروحية وكاريزما الولي من خلال المختار من الرحلات الحجازية من الجزائر في العهد العثماني (1518-1830م).

وقد جاء اختيارنا لهذا الموضوع دون سواه مما حفل به الخطاب الرحلي للكشف عن إحدى أهم أنواع السلطة في المجتمع الإسلامي.

وتهدف هذه الدراسة إلى:

- التعامل مع مفهوم السلطة كمعطى تحليلي له مدلول تاريخي ،من خلال تقديم نماذج عن سلطة الولي الروحية ضمن الخطاب الرحلي.
- تجاوز المفهوم السياسي لمصطلح السلطة والتعامل معها كظاهرة اجتماعية و بنية تاريخية متداخلة الأبعاد.
- الإحالة إلى مفهوم الكاريزما ضمن الخطاب الرحلي إلى الحجاز.

وتحقيقا لهذه الأهداف اعتمدنا مقاربة وظيفية تاريخية من خلال تحديد السياقات التي تتمظهر ضمنها تلك السلطة.

ولمعالجة ذلك تم التركيز على النقاط التالية:

- زيارة الولي، من العادة الاجتماعية إلى البنية التاريخية.
- كاريزما الولي و سلطته الروحية ودعائمها ضمن الخطاب الرحلي.

I- ظاهرة زيارة الولي كبنية تاريخية اجتماعية:

تؤدى الأطر الاجتماعية ضمن الرحلات الحجازية من الجزائر خلال العهد العثماني دورا مركزيا في صياغة تاريخ المجتمعات المغربية والمشرقية، ذلك أنها تعكس الإطار التنظيمي العام الذي تندرج تحته كافة أوجه السلوك الإنساني في مجتمع ما، وتلك العلاقات البينية بين الأفراد والأشخاص داخله، وكذا العلاقات التبادلية فيه، فتشمل السلوك الإنساني والظواهر التي تتأثر به، وما يتشكل في مجملها، كما تتضمن الأنشطة والتفاعلات الإنسانية النمطية والمستقرة، وهو ما يتضمنه تعريف ابن خلدون لصناعة التاريخ بقوله: (إعلم أنه كما كانت حقيقة التاريخ، أنه خبر عن الاجتماع الإنساني الذي هو عمران العالم، وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الأحوال مثل التوحش والتآنس والعصبيات وأصناف التغلبات للبشر في أعمالهم ومساعيهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع وسائر ما يحدث من ذلك العمران بطبيعة الأحوال...)[1].

ولن يتحقق ذلك في صناعة التاريخ إلا من خلال الوقوف عند ماهية الظاهرة الاجتماعية، أي من خلال إكساب مفاهيمها صيغة تاريخية، وتحريرها من طابعها السردي التقليدي لمكاشفة الظواهر الفردية والجماعية المرتبطة ديناميكيا ببعضها، ذلك أن النمط السردي يؤدي في الغالب إلى الترتيب والتأويل غير المناسبين للتفاصيل التاريخية، وفي هذا المضمار فإن ما قدمه الرحالة الحجازيين أشبه ما يكون بمزيج بين الرحلة والأثنوجرافيا التي تسعى إلى تقديم توصيف موضوعي للشعوب وعاداتها وتقاليدها وأخلاقها وطريقة لباسها وضمن هذا الاطار تندرج ظاهرة زيارة الاولياء و التبرك بهم.

حيث ساهم الرحالة من خلالها في استخلاص أسلوب الحياة وتحليل القيم والأشكال والجوانب المادية والروحية التي تشكل بدورها الأسلوب الحياتي للناس، وأصبحت زيارة الاولياء تراثا شعبيا يمثل لغة مشتركة لدى الجميع وبه تدرس المجتمعات بنواحيها الإنسانية والتاريخية والاجتماعية والدينية والفلكلورية والمعتقدات الشعبية لها ،وقصص الشيوخ والأولياء والحكايات الأسطورية والخرافية ،وحكايات الحيوان (فجاءت الرحلات مصدرا هاما لوصف الثقافات الإنسانية)[2].

وعليه فإن الخطاب الرحلي الجزائري الحجازي في هذا المضمار، يتشكل من عناصر إخبارية تؤدي وظيفة أساسية هي الإنباء والرغبة في الإفادة، يقدم فيها الرحالة الأخبار التي علمها وبحث في كنهها وحقيقتها أي الأخبار الاجتماعية التي تجتمع لتشكل صورة عامة عن الحياة في الماضي والحاضر، وفق انطباع الرحالة ورؤيته للأشياء، وبذلك تعد الرحلة بموضوعها الإخباري (من أكثر الأجناس الأدبية تمثيلا لذلك التقاطع الحاصل بين الأدب والتاريخ والأدب وعلم الاجتماع...)[3] أي الأدب ومختلف العلوم.

وفي هذاالسياق يعمد الرحالة إلى التوليف بين بعض وقائع الرحلة التي تتباعد زمنيا ليجعل بعضها اِستدلالا على بعض، أو يرمي إلى إبراز التماثل القائم بينها، على الرغم من اِختلاف الأزمنة والفضاءات (فالانتقال من التوثيق الذي يرتبط بمسارات الصلة وتحويلها إلى التأويل والتفسير المبررين للوقائع والأحداث...)[4]، يؤثث لتاريخ إشكالي متجاوز التاريخ التقليدي السردي، وفي ظل هذه المقاربة ينشأ بحث لا يتركز على فقط العادات والتقاليد والغذاء واللباس أو على علاقات السكن والعمل، بل وفي سياق إعادة بناء التاريخ من تحت يتم وصف حال الناس الروحية وحياتهم الباطنية في فترات زمانية (وبذلك فالمنطلق هو التسليم بأن البنى الاجتماعية وعمل البشر في الحياة اليومية أمور

متفاعلة لممارسة الحياة اليومية ،تتكون خلال التكرار والتجارب التي ينتجها الاتصال الاجتماعي...)[5].

واستنادًا لهذه المرتكزات الأساسية يعاد تبني مفهوم للتاريخ جديد من خلال ظاهرة زيارة الاولياء (في اِتجاه منابع الحياة بما هو ملموس فيها، وما هو يومي وما لا يمكن تحطيمه وما هو إنساني مجهول...)[6]، في فترة زمنية طويلة الأمد، أي التعامل مع هذه الظاهرة كحدث اجتماعي وبنية تاريخية قابلة للتحليل وحتى التنظير ضمن الرحلة الحجازية، اي (بنى تاريخية قابلة للاكتشاف وبشكل ما قابله للقياس، مدتها الزمنية قياس...)[7].

وعليه تم اِرتداد الاجتماعي على ما هو رمزي وثقافي، ويمكن أن نطلق عليه في تفاصيله التاريخ الاجتماعي والثقافي بحيث (اِستعار ثوب الأنثولوجيا، وهو ما عبر عنه الانتروبولوجي الفرنسي كلود ليفي شتراوس (لدي شعور بأننا نقوم بالعمل نفسه وكتاب التاريخ الكبير هو محاولة إثنوغرافية حول المجتمعات الماضية...)[8].

وفي سياق دراسة الرحلات الحجازية من الجزائر خلال العهد العثماني كمصدر يشتمل على فوائد تاريخية واجتماعية سواء في جوانبها الاستطرادية أو الموضوعية، يبرز ضمن جوانبها الأساسية أو الثانوية الاجتماعية في بلاد المغرب والمشرق ظاهرة زيارة الاولياء والتبرك بهم ، من خلال كتابة إنسانية مركزية ظل فيها الإنسان ومعتقده هو الاهتمام الأكبر للرحالة وهو معنى عمله بالذات، وذلك بالتركيز على الإنسان العادي في كل يوم، فرغم التحول المكاني للرحالة فالتاريخ يظل تاريخا إنسانيا إذ (ليس هناك تاريخ إلا تاريخ الإنسان... فالتاريخ علم الإنسان والأفعال، نعم، ولكن الأفعال الإنسانية هي التي تكون عمل المؤرخ)[9] .

2- زيارة الاولياء ضمن العادات والتقاليد كشكل من أشكال التبئير التاريخي:

إن العادات بمفهومها الواسع تندرج ضمن عملية تكرار لسلوك أو نشاط شعوري أو لا شعوري، وفي نفس السياق يبرز تعريف العادة أنها ذلك النزوع الشخصي الاجتماعي الذي يعبر عن غلبة إنتاج الأفكار الاجتماعية ثم إعادة إنتاجها مع تغير الظروف الاجتماعية واستمرارية تطور المجتمع والتفاعل الدائم بين النزوع الشخصي والمجتمع الذي يتحرك ضمنه ذاك النزوع[10].

تتخذ دراسة المجتمع من العادة شكل نظم اجتماعية ينبغي التمييز ضمنها بين طريقة حياة شعب ما أو ثقافته، وبين ذلك التكتل المنظم لعدد من الأفراد يتفاعلون فيما بينهم ويتبعون طريقة حياة معينة أو (نظام اجتماعي يمثل التعبير التقني الأنثربولوجي الذي يدل على المظهر الأساسي في حياة الجماعة الإنسانية، وهو يشمل النظم التي تؤلف إطارا لأنواع السلوك جميعها سواء كان فرديا أو اجتماعيا...)[11]، أي الكشف عن العلاقات المتبادلة بين مكونات التنظيم الاجتماعي في إطار مجتمع محدد وبروز التنظيمات ودورها، أوعلى الطرق التي تنظم بها المواقف الاجتماعية أو الأدوار والتوقعات، أو تدخل النظم الاجتماعية وتشابكها، أي التعرف عن جوانب التكامل في المجتمع وجوانب التوتر والصراع وفهم المجتمع بوصفه كلا متكاملا[12].

ولذلك من الضروري وفي سياق الحديث عن العادات والتقاليد التمييز بين العادات الفردية والجماعية، أما الفردية فهي ظاهرة شخصية تمارس في حالات العزلة على المجتمع كطريقة لباسه وكلامه وأكله إلى جانب الفعل الغريزي المتكرر الذي تنجم عنه العادة ،فيقيم الإنسان لنفسه صرحا من العادات تكون من دعائم المجتمع[13]، ويقصد بالجماعية ممارسة عدد كبير من أفراد المجتمع عادة جماعية أو أنماط سلوك تبقى عليها الجماعة وتتناقلها عن طريق التقليد والتفاعل، تتأرجح بين ما هو مفيد للحياة الاجتماعية

يوحد المجتمع ويعمل على لحمته وبين ما هو سلبي يشيع الفرقة بين أفراده[14]، وقد زاوجنا بين هذين النمطين انطلاقا من ان عادة زيارة الاولياء يقوم بها الفرد والمجتمع بذاته و هو ما لاحضه او قام به الرحالة في البلدان التي يزورها.

كما يمكن ادراجها ضمن التقاليد التي تعبر عن اِرتباط الإنسان الجماعي بتراثه المادي الروحي وإحياءه من خلال إعادة إنتاجه ماديا ضمن إقامة الاحتفالات المعبرة عنه، وهو أيضا سلوك أو نمط سلوكي يتميز عن العادة بأن المجتمع يقبله عموما دون دوافع أخرى عدا التمسك بسنن الأسلاف[15]، ويذهب الكثير إلى أنه (ينبغي أن يطلق اِسم التقليد على العادات الميتة التي تحولت إلى عادات شكلية بحتة لم تعد تجد لها مكانا إطلاقا في تفكير الرجل الشعبي، وهو تلك العادة التي فقدت مضمونها، أي تلك العادة التي لم يعد من الممكن التعرف على معناها الأصلي الحقيقي وإنما نمارسها للمحافظة على فكرة أنه ينسب إلى تلك العادة... معنى هذا أن التقليد هو عادة اجتماعية ميتة تحولت إلى شكل بحت...يستخدم كمعنى راسب ثقافي...)[16].

واستنادا لهذه االمعطيات الأساسية في الحياة الاجتماعية، تحفل الرحلات الحجازية من الجزائر خلال العهد العثماني، بجملة من المفاهيم الرئيسية التي تصنف ظاهرة زيارة الاولياء و التبرك بهم على انها تعبر عن العادات والتقاليد في المجتمعات التي زاروها، إذ تعاملوا معها ضمن هذا الإطار على أن التقليد والعادة شيئا واحدا، حيث (تنتمي التقاليد إلى تراث هام فكريا في مجتمع يتميز بالمحافظة على الأفعال والعادات...)[17].

تندرج ظاهرة زيارة الاولياء و التبرك بهم من أفعال الانسان، وكل ما يعمله البشر هو ما يفعلونه، وكل معرفة للعالم الإنساني تكون تفكرا في الذات، وهو ما ساعد في الحصول على معارف البحث في عوالم الحياة وعوالم الثقافة، إذ هي معارف تمدنا

بإرشادات حول البشر وعلاقاتهم بالعالم وبذواتهم، والأمر في هذه العلاقات مع العالم ومع الذات ذو صلة بعلاقات عقلية ورمزية وخيالية تتمأسس في مجالات فعل اجتماعي وفي ممارسات ثقافية مختلفة[18]، فلا يعبر تاريخ العادات عن نفسه بتواتر الظواهر والأحداث المثيرة، وإنما يعبر عن نفسه من خلال مزيج قار من السلوكيات الموروثة وظواهر التأقلم والتجديد[19]، وعبر مقاربة الميكرو تاريخ التي يتفكك ضمنها في عالم مبني على الفردانية (والذي ما فتئ تناسقه يتضاءل شيئا فشيئا تطور تاريخ مفكك نتيجة منظور الفرد المؤرخ...)[20] ،حيث (لا يمكن أن يصلح التاريخ الكلي إلا في حدود خطة برامجية... تتجزأ الكليانية إلى عدد لأقصى من المواضيع المفردة التي يجب تحديدها وبناؤها...)[21].

ومن ثم فإن الوصف الشامل الذي يجمع كل الظواهر حول مركز واحد أي التاريخ العام يقوم بتهيئة مجال للتشتت وخلق أجزاء للمعرفة أو ما عبر عنه ميشال فوكو بحفريات المعرفة إذ أن (المدخل إلى حفريات المعرفة هو أول تعريف للتاريخ السلاسلي...)[22].

ذلك ان النظر إلى المجتمع على أنه نسق اجتماعي أي وحدات اجتماعية مختلفة نسبيا تساهم في وظائف مختلفة لدفع المجتمع وتقدمه، تمكننا من دراسته وفق مقاربة وظيفية من خلال التركيز على وظيفة العناصر الاجتماعية من لغة وعادات وتقاليد وعقائد دينية وقيم ثقافية، ودورها في الحفاظ على مجرى الحياة في المجتمع، كونها تشكل العناصر البنيوية، فأجزاء المجتمع تتكامل في القصد والهدف وحسب دوركهايم يدرس المجتمع من خلال التركيز على الانسجام في ملامح الرقابة الوظيفية، بل وجب النظر إلى المجتمع على أساس أنه مستقر، وليس هناك ما يعكر صفوه من صراعات ونزاعات بما أن أجزاءه تتكامل في القصد والهدف...)[23]، وانطلاقا من هذه المقاربة قامت دراسة ظاهرة

زيارة الاولياء و التبرك بهم كجزئية اجتماعية وتاريخية ضمن الرحلات الحجازية وفق أطر تقتضي بأن لا يأخذ التاريخ الحدث في إعتباره دون تحديد السلسلة التي ينتمي إليها[24]، حيث يستمد معناه من الموقع الذي تحتله تلك السلاسل، والتي تؤكد وظائف جزئية في إطار نسق من الظواهر ليبني وظيفة كلية[25]، ومن خلال تبنى هكذا مقاربة تبرز هذه الظاهرة ضمن البنى الاجتماعية الميكروتاريخية أو الجزئية من خلال التركيز على (التاريخ الصغير).

3زيارة الأولياء والتبرك بهم (سلطة روحيةكاريزمية ونسق ديني):

اعتاد سكان الوطن العربي منذ القديم على ممارسات متكررة تحولت إلى تقاليد تلقائية تتحكم في حياتهم اليومية وسيرها، واستسلموا لها وحولوها إلى سلوكات طبيعية مترسبة في أذهانهم من ذلك زيارة الأولياء[26]،والتبرك بهم و نجد في المادة الرحلية الى الحجاز إشارات جلية إلى تلك العادة والتقليد الاجتماعي ذو الحضور الديني (...باعتباره من سلوكات أفراد المجتمع، كما أن لها حضور ديني يتمثل في المعتقد الإيماني، الذي هو متجذر في وجدان الإنسان والمجتمع، والذي تبلوره الممارسات الثقافية التي تعتبر العادات والتقاليد، جزءا منها لإنخراطها في التنظيمات التي تحكم مجموع هذه الممارسات...)[27].

لقد حفلت الرحلات الحجازية من الجزائر خلال العهد العثماني بمادة تاريخية ثرية حول نسق ديني متكون من رموز تعمل على تأسيس طبائع ودوافع ذات سلطة وانتشار واستمرار دائمين لدى الناس ،وذلك عبر تشكيل تصورات حول النظام العام للوجود مع إضفاء طابع الواقعية وبشكل متفرد[28]، أساسها سلطة الولي التي تعتبر شخصية محورية في الحياة الاجتماعية للمجتمعات العربية مغربا ومشرقا في شقها الديني، وقد ترجم الرحالة سلطتها من خلال الزيارة والتبرك، من ذلك زيارة الرحالة الجزائري المقري في رحلته لقبرالولي التنهيلي والولي العارف أحمد بن العريف الأندلسي[29]، ولم يستثني الرحالة

الورثلاني هذه العادة في كل منطقة يدخلها فكانت من سلوكياته قبل الخروج في رحلة الحج ،إذ تحدث في الجزائر عن زيارته لكل الأولياء والتبرك بهم أحياءا كانوا أو أمواتا ،ففي الجزائر تجول زائرا أوليائها وتبرك بهم، إذ يقول: (...زرت الشيخ الغوث أبا حملين في المسيلة...زاد عزمي وقويت همتي للمشي...إلى ناحية زواوة وقرية تدلس لزيارة الشيخ الولي الصالح سيدي أحمد بن عمر...ومررنا على قبر الشيخ الولي الصالح والقطب الواضح...غيث بلدنا سيدي يحيى العبدلي...ذهبنا لبني عباس...وبعده ذهبنا لزيارة الشيخ الولي الصالح...سيدي أحمد بن عبد الله جد أولاد أمقران...زرنا مقام الشرفاء في سيدي بوجليل...كذا)[30]، وفي تونس يقول: (...وصلنا إلى روضة الشيخ سيدي الحسن الكوني...فنزلنا عنده وزرناه..كذا.)[31]، ووصف أوليائها قائلا: (..هذا وأن أولياء الله في تونس كالنجوم الأموات والأحياء، قد زرنا من يعدو بزيارته من الأموات كالشيخ محرز بن خلف وسيدي علي بن زياد والشيخ المرجاني، وما كان الزلاج كإبن عبد السلام وبن عرفة...وبن هارون بن رشيد القفصي، وغيرهم من العلماء والصلحاء من لا يمكن إحصائهم من المؤلفين وأرباب الأحوال العارفين، حاصلة لا يمكن استقصاء ما فيها من النجباء والفضلاء والصلحاء...)[32]، وفي طرابلس ليبيا أكد ذلك قائلا: (...زرت من كان بالمدينة سيدي عبد الوهاب وسيدي درغوت...)[33].

وفي مصر تحدث عن مزارات كثيرة للصالحين من ذلك قوله :(وزرنا أيضا قبر الإمام الذي لا ينبغي لأحد دخل مصر أن يهمل زيارته...محمد بن إدريس الشافعي، وزرنا أيضا الإمامين الشهيرين الشامخين الحاملين لراية مذهب مالك السالكين في ذلك أحسن المسالك رواية المذهب، عبد الرحمان بن قاسم وحاميه وناصره أشهب رضي الله عنهما..كذا)[34]، واستطرد قائلا: (....وزرنا تربة المجاورين ومن اشتملت عليه من الأئمة المحققين...ورزنا كذلك القرافة الصغري من الصالحين وزرنا قبر الشيخ خليل رضي الله عنه

وقبر شيخه الشيخ أبي عبد الله المنوفي...كذا)[35]، وفي الحجاز أيضا أفرد الورثلاني حديثا مطولا (عن التصورات الجماعية المتقدمة على إدراكات الناس وأعمالهم والتي تحدد الوضعيات التاريخية...)[36]، من خلال التبئير في ظاهرة زيارة الأولياء، وتحويلها إلى ضرورة وحتمية، فأشار إلى أهم مزارات بلاد الطائف بقوله: (ومن الأماكن التي تزار ببلاد الطائف[37]، البلد نفسه، فقد وردت فيه آثار تدل على فضله، ومنهما قبر ترجمان القرآن حبر الأمة، سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما..كذا.)[38].

وفي سياق الحديث المركزي لزيارة الأولياء يحيلنا الورثلاني إلى مزارات مكة بقوله :(...ومزارات مكة كثيرة جدا بل أعظم المزارات ومحط أمال الراغبين ومنتهى سير الآملين، ومناخ همم العارفين وغاية منية الشائقين وقبلة العابدين ووجهة المعتبرين...ومسقط رأس سيد العالمين صلى الله عليه وسلم...كذا)[39]. وضمن الرصد التاريخي والحضور المكثف في الرحلات لظاهرة زيارة الأولياء ،والذي ينم عن ذهنية جماعية وبنية تاريخية تحولت من سلوك فردي إلى نوع من الممارسة الطقوسية المقدسة يحدثنا الرحالة التنلاني عن زياراته لعدة أولياء في طريقة إلى الحج بقوله :(...رحلنا لقرية بعلى وزرنا قبر الولي الصالح العلامة سيدي محمد بن علي الكريم المغيلي[40]...كذا)[41]، وما يلفت الانتباه أن التنلاني قد تناول هذا النمط المترسخ في الذهنية الشعبية للجزائريين من خلال زيارة الزوايا من ذلك قوله :(ثم أسرينا، وقلنا زاوية الرقادي، ثم رحلنا منها لزاوية سيدي أبي الأنوار...ثم لزاوية تقرافت...ثم رحلنا لزاوية أبي النعامة نفعنا الله به وزرناه...كذا)[42].

وانطلاقا من تحليل الزوايا كمفهوم تأسيسي لمنهج الرحالة في سياق حديثه عن زيارة الأولياء تبرز أهميتها الضمنية كرمز ديني إذ يدفن داخلها الأولياء عادة فتتحول إلى أماكن مقدسة بعدما كانت (أماكن للعبادة والإيواء والعلم...إذ هي مدرسة دينية ودار

مجانية للضيافة ،ظهرت أول مرة كمكان للاجتماع بشكل علني في المدن خصوصا...يجتمع فيها مريد وطريقه من الطرق في أوقات معينة من أجل الترديد الجماعي لأوراد والأذكار...)[43].

وبذلك مثلت الزوايا مؤسسات اجتماعية حقيقية تجمع بين نشر العلم وبث مبادئ التصوف والأعمال الإحسانية، فأصبحت تشكل المكان المفضل لبعض شيوخ التصوف الذين ينقطعون بها للتعبد وإرشاد العباد...)[44]، وانطلاقا من أن القدسية تنسحب على أمكنة وأشياء الشيخ أو الولي فقد اكتسبت تلك الزوايا قدسية في الذهنية الشعبية في الوطن العربي، لما كانت مقر الولي حيا وميتا يشيد ضريحه داخلها فتتبلور قدسيته (كبناء محتضن ومؤسس لبركة الولي الصالح، كما يعد الشاهد المعماري على امتدادات المقدس في الأرض) [45]، كما أنه الدعامة الوسيطية بين الأرض والسماء فالقبة المتجهة إلى الأعلى تبرر هذه العلاقة الوسيطية وتدعمها معماريا، وعليه فإن الأمر يتعلق بخزانات أرضية للقداسة السماوية[46]، حيث تأخذ الزاوية اسم صاحب الضريح الذي يعد (مؤسسة دينية مركزية المجتمع المغربي...المشرقي، فيتحول إلى مؤسسة دينية، ومكانا للحج والزيارة)[47].

إن البحث في حالات الوعي التي تضع أساليب الفكر وتتحسس البنى الذهنية المكونة من رؤى موروثة عن ماض سحيق ومعترف بها من طرف المجتمعات العربية والإسلامية، قد أخذت نصيبا كبيرا ضمن الرحلات الحجازية من خلال تناولها للظاهرة زيارة الأولياء وإيحاءاته المختلفة كبنية أساسية في المجتمع، وجزء لا يتجزأ منه فورد لدى الرحلة الجزائري أبو راس الناصري عند خروجه الى الحج زيارته بعض الأولياء الأحياء منهم والأموات ومن ذلك قوله :(وقد زاد عزمي للمشي غير أنه عارضني أمر واجب السفر...إلى ناحية زواوة وقرية تدلس لزيارة الشيخ الولي الصالح سيدي أحمد بن

عمر...ومررنا على قبر الشيخ الولي الصالح والقطب الواضح سيدي يحي العبدلي وقد شهد بقطبانيته الشيخ الولي الصالح سيدي عبد الرحمان الصباح...كذا)[48].

وعن ذلك يذكر الرحالة المصعبي في رحلته

وشيخنا القوم الكرام أحبة إلى محراب الشيخ الرفيع المعاليا

هو العالم النحرير حمو بن قاسم[49] بغرداية قد كان للحق حاميا[50]

ويتماثل معه الرحالة الأوربي جوزيف بيتس في سياق حديثه عن أهل مصر وعاداتهم وكيف يتبرك الحجاج بأماكن دفن الأولياء بقوله: (...أبحرنا من السويس حوالي عشرين يوما فوصلنا لموضع دفن مقام المرابط marrabot، وتعني المجاهد في سبيل الله، وربما كان مدفونا هنا منذ مئات السنين ،ولما وصلنا لموضع دفنه في هذه الجزيرة صنع واحد من طاقم سفينتنا سفينة صغيرة يبلغ طولها قدمين وراح يمر على كل الحجاج طالبا منهم أن يضعوا الصدقات والهبات فيها على شرف المرابط...وكانوا يضعون بكامل حريتهم بعض قطع العملة ثم أخذوا شموعا صغيرة وزجاجة زيت صغيرة، ووضعوها في هذه السفينة الصغيرة مع المال المجموع، ويقولون أنهم يتركون ذلك على شرف المرابط، وبعد ذلك رفع الجميع أيديهم طالبين البركة من هذا الشيخ المرابط، ودعوا أن تكون رحلتهم سهلة، ثم وضعوا السفينة الصغيرة بما عليها من مال وزيت في البحر، وليس لديهم أدنى شك أنها ستصل للشيخ المرابط في ضريحه...يحترم المسلمون هؤلاء المرابطين احتراما عظيما فإذا استطاع أحد القتلة أن يهرب إلى مقام (قبر) واحد منهم، فإنه يصبح آمنا كما لوكان في دير فلن يستطيع أحد أن يمسه بسوء في هذا المكان...كذا)[51]، وضمن هذا النص تندرج حقيقة التصديق المكلف ببركة الأولياء في المجتمعات العربية حتى بعد موتهم، كما يفسر أحد الطقوس الممارسة للحصول على البركة متمثلة في الصدقات

على شرف الولي، وهو ما يندرج ضمن تاريخ الذهنيات الذي يبرز في الأفكار والأحاسيس أو كل ما هو شعور[52].

و عليه فان الحديث عن ظاهرة زيارة الأولياء والتبرك بهم، وفق المفاهيم التأسيسية لمنهج الرحالة يجعل الحديث عن هذه الظاهرة هو التحدث عن البنية بمقدار التحدث عن أبعادها، وبتحديد أكثر هو التساؤل عما إذا كان لهذه الظاهرة مفهوم يؤكد سياقها التاريخي أو استخدامها في المنهج التاريخي؟، والإجابة عن هذه الإشكالية تقتضي قراءة جديدة تحليلية وتفسير معناها من خلال إيحاءاتها، أو التعامل مع هذه الظاهرة من خلال تقديم لمحة دالة على معناها وأبعادها ذات الدلالات المتعددة، إذ تفرض ظاهرة زيارة الأولياء والتبرك بهم ضمن الرحلات الحجازية نفسها لكون الكثير من الاستعمالات اللاحقة بهذا المصطلح والمرادفة لها تستند إليها، فتجد صيغة المعتقد بأبعادها الاجتماعية، وانطلاقا من فكرة أنه لا يوجد مجتمع بدون منظومة معتقدات لا تختلف إلا بفحواها، فهي تأخذ في هذا السياق مسألة المعتقدات اللاعقلانية وتعبر عن ذهنية شعبية توارثت الإيمان والاعتقاد والتصديق في ظاهرة الأولياء وضرورة زيارتهم والتبجيل بهم، فالولي "هو ملهم الشعب"، وبناءا على ذلك أصبح الولي وفق هذه المقاربة إحدى الرموز الدينية التي تقتضي الاعتقاد فيه جملة من الممارسات والطقوس دلالة على تبني هذا النسق، من ذلك زيارة قبور الأولياء والصالحين الذي عنيت الرحلات الحجازية في الجزائر خلال العهد العثماني بالتعرض له ضمن طقوس تعظيم الأولياء، وهو ما يعبر عنه بنوع من الأدب يرتبط بتقليد أدبي شهد رواجا كبيرا خلال المئة الرابعة، عرف بكتب الزيارات والتي من أشهرها كتاب "الإشارات في معرفة الزيارات لعلي الهروي (ت 1215هـ)"[53].

و الجدير بالذكر هو انتشار هذه الظاهرة وتحولها إلى نوع من الممارسة الطقوسية المقننة والمندرجة في إطار ما هو أشمل منها وهو ظاهرة تعظيم الأولياء (والتي لعب فيها

انتشار أدب الزيارات دورا محددا...)[54]، وقد تحدث الرحالة الورثلاني عن هذا النمط أو المعتقد لما حثه عليه شيخه في مصر عبد الوهاب العفيفي بقوله: (...ومن عجائب ما رأيت له أنه أمرني بالذهاب معه إلى زيارة الصالحين والأولياء العارفين والعلماء في القرافة الكبرى والصغرى وملازمته للأدب في الزيارة غاية...هذا وإني شهدت أنوار صحبته في حال الزيارة معاينة ومع ذلك ما تركنا ناحية من النواحي إلا زرناها من الصبح إلى الظهر...وجدنا حلاوة ما وجدناها في غيرها من الزيارات فإني جبلت على حبها من صغري وقد كثرت مني غربا وشرقا وجوبا وقبلة، بمعنى وجودها مني للأحياء والأموات...كذا)[55].

كما يحدث عن هذه العادة لدى سكان المدينة المنورة بنص جاء فيه: (...ومن عاداتهم في يوم الجمعة الخروج للبقيع، ووضع الرياحين الكثيرة على القبور...كذا)[56]، وفي سياق ذكره لمزاراته يقول :(...بالغت في الزيارة والاستقصاء لمدينة الجزائر وأرض الجدار أعني تلمسان، وكذا مليانة التي شرفت بالولي الصالح والقطب الواضح...، سيدي أحمد بن يوسف...، وكذا الشيخ الكامل سيدي علي بن مبارك...، وكذا البليدة وقد زرنا فيها الأكابر كالولي الصالح الشيخ سيدي الكبير...ومثلها المدية وقد زرنا فيها الشيخ سيدي محمد أبركان...وكذا دلس...، وكذا المسيلة وقد زرنا فيها الشيخ القطب الغوث سيدي محمد بن عبد الله بن أبي جملين... وكذا...سيدي عقبة والنبي سيدي خالد...وقد زرت أيضا تبسة ومن فيها...وكذا قسنطينة ومن فيها...كذا)[57].

ومن ثم أصبحت هذه الظاهرة في المجتمعات العربية جزءا من المعتقدات الشعبية (...يستلبس فيها السلوك الشعبي ويكيفها مع ممارسته الدينية، فتتشكل المزارات و ترمز إلى ذلك بشكل جلي نظرة الأفراد إلى الولي الوسيط بينهم وبين الله...ومسألة تقديس

الأولياء والمزارات تعتبر وفق ذلك من أهم ركائز هذا الدين الشعبي الذي لا يبلغ اكتماله إلا في حالة القداسة...)[58].

كما أن التأمل النقدي لظاهرة الأولياء والمزارات تحيلنا إلى نمط من المعاني المتجسدة (في رموز تنوقلت تاريخيا مما يحولها إلى نظام من المفهومات المتوارثة يعبر عنها بأشكال رمزية)[59]، متعددة فتصبح ظاهرة تاريخية اجتماعية دينية تفهم في سياق الإشارة والرمز والدلالة والمغزى والتواصل، وفي هذا الإطار يمكن أن نخلص ضمن هذه الظاهرة إلى الاعتبارات التالية:

- إن ظاهرة زيارة الأولياء والتبرك بهم تساهم (في تركيب روح الجماعة، ففي الإيمان والممارسة الدينية تكتسب روح الجماعة مبررا فكريا عبر إظهارها بأنها تمثل طريقة حياة متكيفة بشكل مثالي مع الحياة...)[60]، وهو ما يعبر عنه بالبنى الذهنية المتأصلة والمكونة من رؤى للكون (موروثة عن ماض سحيق ومعترف بها من طرف المجتمعات وربما من طرف كل المجتمع الشمولي)[61]، كماتعكس هذه الظاهرة نسق من الرموز الدينية في المجتمعات ا لعربية و الإسلامية ،وفي إطار الانتروبولوجية التأويلية يشكل الدين بالمعنى الواسع للكلمة وما يتصل به من طقوس وشعائر وممارسات وما يدور حوله من أساطير مجالا خصبا للدراسات الرمزية الاجتماعية العامة،وقد برز في هذا الاتجاه غيرتر من خلال دراساته الميدانية على المجتمعات المغربية،فانطلق في ذلك من مفهومه للدين أنه نسق من الرموز يعمل على تأسيس طبائع ودوافع ذات سلطة وانتشار واستمرار دائمين لدى الناس ،وذلك عبر تشكيل تصورات حول النظام العام للوجود مع إضفاء طابع الواقعية بشكل متفرد ،وقد اعتبر التاريخ المغربي تاريخا دينيا بالأساس وجعل من رمزية الولي شخصية صانعة للتاريخ وهي شخصية دينية بالدرجة الأولى ،فله نفوذ روحي وسياسي، وهو محل توقير واحترام وكذا تقديس

دائم فيحصل الفرد منهم على الاحترام والتقديس حيا ويفرقه ميتا، فبعد أن تدفن أجسادهم في قبور محاطة بتابوت يلجأ إليه كل من يتعقبه خطرا و بالتالي يصبح المكان مقدس.

- وفي منحى آخر تعبر ظاهرة تقديس الأولياء وزيارتهم تنم عن بنية اجتماعية ذات نمط متكرر ثابتة أو تكاد تكون كذلك في فسحة طويلة من الزمن انطلاقا من الزمن الضارب في القدم.
- تقدم الرحلات الحجازية ضمن تناولها لظاهرة الأولياء شواهد واضحة عن متخيل المجتمعات العربية في الفترة العثمانية، انتظمت في ضوئه معطيات أسطورية وطقوسية يعبر عنها بخوارق وكرامات الأولياء، فبناء على القاعدة الصوفية الشهيرة "ما كان معجزة لنبي جاز أن يكون كرامة لولي(نجد أن الكثير من المعجزات شكلت كرامات مترددة بين عدة أولياء إلى درجة تكرار بعضها بكل حذافيرها مع تغيير فقط في هوية وشخص المعنى بها...)[62]، ولما كانت هذه الكرامات أمر خارق للعادة تظهر على يد شخص صالح، فخوارق العادة أقسام من المعجزة، وهي تظهر على يد النبي ،ثم الكرامة في المعونة التي تظهر على يد شخص عادي، ثم الاستدراج ثم الإهالة وتظهران على يد شخص ذي شعوذة غير مرضي والكرامة ثابتة بنص القرآن والأحاديث الصحيحة، إذ أخبر القرآن بكرامات ظهرت على يد أناس صلحاء ليسوا بأنبياء ولكنهم ليسوا بمقدسين في الأرض[63].

فوردت كرامة وخرق للعوائد عن سيرة السيدة مريم العذراء لما كان يدخل عليها سيدنا زكرياء عليه السلام ليجد عندها الطعام لا يعرف مصدره وفي ذلك قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هُذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ۖ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[64]، وفي حديث أيضا ما

ورد عن الكرامات خص الله سبحانه وتعالى به أناس صلحاء قبل البعثة المحمدية وبعدها من ذلك قصة جرير والرجل الصالح وتكلم الصبي بالشهادة كرامة للسيد جرير[65]، فروى الإمام البخاري في سنده عن أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [كان رجل لبني إسرائيل يقال له جرير يصلي فجاءته أمه فدعته فأبى أن يجيبها فقال أجيبها أم أصلي؟ ثم أتته فقالت اللهم لا تمته حتى تريه وجوه المومسات، وكان جرير في صومعته فقالت امرأة لأفتتن جرير فتعرضت له فكلمته فأبى فأتى راعيا فأمكنته من نفسها فولدت غلاما فقالوا هو من جريح فأتوه فكسروا صومعته وأذلوه وسبوه فتوضأ وصلى ثم أتى الغلام فقال: من أبوك يا غلام؟ قال الراعي، قال نبني لك صومعتك من ذهب فقال لا إلا من طين][66]، ففي تكلم الصبي في مهده خرق للعادة وكرامة دالة على صلاح صاحبها أكرمه الله تعالى بها.

وفي هذا المضمار ساقت الرحلات الحجازية من الجزائر خلال العهد العثماني هذه الظاهرة ،فروت الكثير من الخوارق والكرامات التي اختص بها بعض الأشخاص، الأمر الذي أكسبهم سلطة ونفوذ روحي في الأوساط العامة والخاصة، من ذلك خوارق أورد عنها الورثلاني نماذجا كثيرة منها أن والي طولقة يحي العبدلي لما بنى له مسجدا اختلف الناس في اتجاه القبلة، وأمام هذا الاختلاف اتجه سيدي يحي إلى جبل فوق قريته وأمره بأن ينخفض، فرأى الناس الجبل ينحني فتبينت له الكعبة وراءه ومن ثم حدد اتجاهها وزال الاختلاف[67]، ومن الكرامات أيضا والخوارق عن المكاشفة، يذكر الورثلاني: أنه لما ذهب مع شيخه عبد الوهاب العفيفي لزيارة الصلحاء بالقرافة الكبرى والصغرى بمصر لاحظ ذلك وعنه قال: (فلا يخفى عليه شيء من قبورهم كأنه هو الذي دفنهم فمهما وصلنا قبرا أو رأيناه إلا قال هذا قبر فلان وفي جواره قبر فلان وفي جواره قبر فلان وفي جهة القبلة قبر فلان أيضا إلى أن يعد الجهات والقبور فعلمت أن ذلك ليس من طريق

الحفظ والتمرين بل ذلك إنما هو من طريق الكشف لاستحالة أن يكون ذلك من رسم الصفة لأنه من خوارق العادة قطعا..كذا.)[68].

كما تواترت روايات كثيرة ضمن الخطاب الرحلي في نماذج الكرامات التي لها علاقة بالنوع المبني على (الدعاء المستجاب عند قبور الأولياء وأضرحتهم...)[69]، من ذلك أن الأولياء كانوا يشفون المرضى فيذكر الورثلاني (أنه زار قبر والي يدعى سيدي علي بن موسى ببجاية وهو ولي كبير وقطب شهير يحدث عنه الشيخ سيدي يحي العبدلي وخصة بالرقية فذكر أنه رقي له عصا، وكان هو الآخر يرقي بها الناس، كما أنه لما كان هذا الولي بوادي بجاية أتوا له بولد كبير بلغ حد المشي وتجاوزه ولم يقدر عليه بأن صار مقعدا لا يقوم أصلا، فمسح عليه ورقاه فمشى من حينه، ومن كراماته أيضا وخوارقه أنه أقام بقرة بعد ذبحها، وقيل أيضا أن كان له مزود إذا امتلأ يكفيه ثمانية أيام بلغ الضيوف ما بلغوا ألفا أو أكثر.....كذا)[70].

وبالعودة إلى قضية شفاء المرضى على يد الأولياء و انعكاساتها، فقد ساهم ذلك في ضياع مهنة الطب وعدم إقبال الناس عليها، وقد تعرض إلى ذلك الغبريني قبل هذه الفترة بقوله :(وهذه الصناعة (الطب) هي أشد الصنائع ضياعا في بلادنا لأنه يتعرضها الفث والسمين ولا ينفع بينهما التمييز إلا عند القليل من الناس)[71]، وقد فسرت الباحثة سمية مزود هذا الوضع بالاتجاه نحو الخرافات والخوارق وكرامات الصوفية والاستشفاء بهم[72]، وعليه لا نجد أسماء لأطباء مشهورين في الفترة العثمانية إلا النادر منهم، وهو تفسير ربما فيه شيء من المبالغة لأن التعرض إلى السياسة العثمانية يلقى ضوءا على هذا الجانب من خلال استجلاب أطباء أجانب للعلاج وكذا هجرة أغلب العلماء من الجزائر.

وعن كرامات أخرى يرد أن الأولياء لهم قدرة كبيرة وسرعة في تحقيق المطلب من ذلك كرامة سيدي أحمد أمزيان بالجزائر أن أتاه فقيرا في أيام الحج، فأخبره بأنه يريد أن يحج هذه الأيام وألح عليه، وذلك وقت الخريف فقام الشيخ وأعطاه عنقودا فأكمل أكله في مكة المكرمة، ثم لما أكمل حجه وجد نفسه في داره[73]، وقد استطرد الورثلاني في ذكر كرامات وخوارق الأولياء حتى يصعب إحصاؤها، فنذكر منها أن الولي سيدي إبراهيم الحاج البجائي سمع الحيتان في البحر تقول سبحان الله أحمد بن عبد الله العظيم ولي الله، وقيل أيضا أن سيدي إبراهيم شوهد في السماء الرائعة يجذب الشمس مع الملائكة[74].

وللناصري أيضا في رحلته مقام لذكر الأولياء منهم ما أورده عن الشيخ السيد عبد الله الشرقاوي الشافعي في مصر الذي وصفه بكثرة الكرامات والخوارق قائلا: (...شيخ الزمان وواحد الأوان صاحب المعارف والكرامات...وبالجملة فهو علامة صالح زاهد ولي كبير وإمام شهير...كذا)[75].

وفي وصفه للأولياء يورد أيضا عن الشيخ عبد الرحمان التادلي بمصر نصه :(...شيخنا العالم الآجل...الولي الصالح الصوفي...الشيخ عبد الرحمان التادلي أصلا ونجارا المكى منشأ ودارا ووقاتا وأقبارا...أمطر على ضريحه شأبيب الغفران فهو الوالي بلا ريب ولا ريث المستشفع به من كل نازلة وريب وديث، المستمطر به لنزول الغيث، الذي يهابه النمر والليث، المستغاث به في كل وعث وغيث...كذا)[76]، وفي هذا القول ذكر لكراماته من إنزال المطر وفك الكروب.

وتعد هذهالكرامات والخوارق من المفاهيم اللاحقة بالولي نستدل بها للتفسير الطاعة العمياء التي تبناها سكان الوطن العربي، لهذه الشخصية الكاريزمية وتجنب معارضتهم للحصول على بركتهم والتمكن من خلالهم من تحقيق مطالبهم، فنجد في

ذلك ما أفرده الورثلاني عن فوائد طاعتهم فيقول :(...فإن سعيت إليهم بحسن اعتقاد قضيت مأربك منهم، لأن الله يستحي أن يردهم، وكذا يفصم بالهلاك من يبغضهم، لقوله صلى الله عليه وسلم [من عادلي وليا فقد أذنته بالمحاربة...كذا)[77].

وفي نفس السياق يورد الرحالة نصا يحذر فيه من مغبة معاداة الأولياء بقوله: (...إياك أن تتعرض لأحد أهل الله ممن تثبت له الخصوصية من الأولياء في زمانك فيما فيه الوسع شرعا...إن الاعتراض على من ثبت له الخصوصية حرمان والمنازعة شقاوة وامتثال أمره غنيمة فالكيس بن الكيس إذا اجتمع مع أحد من الأولياء زمانه ينظر ما يتحسسه منه بقلبه فعله من غير كلفة من الشيخ فتأخذ مكانا في صدره فينظر الله إليك بعين الرحمة لأن الله ينظر إليه بعين الرحمة...ولو تعترضه ولو في غيبة إذ ربما كان ذلك سلبا لإيمانك لأن الله يحارب عنه...أعلى الولاية التصديق بأحوال أهل الله وأدنى الولاية التسليم لأهل الله فلا تنازعهم أصلا بقلبك ولا بقالبك فيموت قلبك إلا ما أنكره الشرع اجتماعا...هم أبواب الله والله يقول أتوا البيوت من أبوابها، فمن اعترض أخذ بحظ نفسه رد عن باب الله وكان مطرودا بين العباد فيراه كل أحد من الناس بعين الازدراء حتى أنه لا يجد شفيعا إلا التوبة الصادقة بحسن الظن وسليم الأمن لأهل الله...هو سلم يرقى به على حضرة الكمال فحسن الاعتقاد وعدم المنازعة بذلك الشأن وخمر عقلك به تفر...كذا)[78]، واعتبارا من هذا التسليم بنفوذ الولي لما نسبوا لأنفسهم من خوارق وكرامات تعجز أمامها قدرة الأهالي خاصة سكان الأرياف، باعتبار أغلبهم أميين ،لذلك كانوا يربطون كل ظاهرة طبيعية بكرامة الأولياء ويفسرون كل حدث اجتماعي أو سياسي بتدخل هذا الولي أو ذاك أو بدعائهم[79].

وبهذا التسليم يحيلنا النص الرحلي الى السلطة الروحية للولي، وبالعودة إلى نظرية العقد الاجتماعي، نجدها تفسر هذا النمط حيث يذهب االمفكر هوبز الى(...ان الأفراد

تنازلوا على كل حقوقهم فله أن يتصرف فيها بدون قيد ولا شرط لأنهم لو تنازلوا عن بعض حقوقهم لا بد للفوضى أن تعود من جديد ،وبما أنه ليس طرفا في العقد فيجب أن تقابل أوامره بالطاعة مهما كان الأمر لأن هذا الوضع أحسن لهم من حياة الفوضى فهم من تنازلوا عن حريتهم في سبيل الحصول على الأمن والسلام...)[80].

كما تحدث عالم النفس الفرنسي ماكس فيبر عن هذه السلطة وأطلق عليها مصطلح السلطة الكاريزمية، والتي يقصد بها (...النظام الشخصي للقائد الذي يملك الإلهام والنظرة النبؤية والغريزة السحرية، وهي تلك القدرة فوق العادية للقائد الذي يحقق حكمه الشخصي ويجعل سلطته ملزمة...)[81]، فهي سلطة لم يتفق عليها بين الميسر والمسير، ويرى فيبر أنه لما كان هذا النوع من السلطة الذي لا يستند على قواعد متفق عليها، سواء عن طريق عقلاني أو عن طريق تقليدي، وإنما يستند على الإيحاء أو ما يظهر للناس المسيرين بأن صفات الحاكم صفات خارقة، لذا فإن هذا النوع من السلطة لا يتسم بالعقلانية، وحتى أن الرئيس القائد نفسه يعتقد أنه يدعو إلى تأدية رسالة ما، و عليه فأساسها هو انفعالي وليس عقليا، ومن جراء ذلك أن كل القوة التي تعطى هي أمثلة لمثل هذه الفعالية يعتمد على الثقة التي هي في الأغلب عمياء متعصبة[82].

و دعائم هذه السلطة هي الخوارق والكرامات التي يتميز بها الولي عن الإنسان العادي و هي صفات غير اعتيادية مما يجعل الناس يعتقدون (...بأنه مبعوث العناية الإلهية ويحقق الخيرات لشعبه وأتباعه...)[83]، فهو شخص أسطوري من خلال كراماته وخوارقه وهذه السلطة الأسطورية تنفتح أمام الدراسات الإثنولوجية، فتكون عنصرا ميثودولوجيا للبحث في دلالة هذه الخوارق (الأساطير) (بما أنها لا تمتلك دلالة لوجودها ولأنها لا تتخذ أو تتيح معنى إلا بالنسبة إلى نظام البنى الأسطورية الذي تنتمي إليه...)[84].

وعليه فإن دراسة الخوارق باعتبارها أساطير ضمن الرحلات الحجازية تبرهن آليا عن تحول زيارة الأولياء والتبرك بهم (إلى طقس اجتماعي يستمد سلطته من الاعتقاد الشعبي للسلطة كاريزيمية أساسها قوى غيبية أو قوى طبيعية)[85].

وبهذا تعتبر من أهم الطقوس الاجتماعية ذات الحضور الديني في البلاد العربية خلال العهد العثماني، ويندرج هذا الطقس الاجتماعي (بعودة الظروف التي تستدعي إعادة القيام به، وهو يتسم بأولويات يفترض تفعيلها لكي يفرض طابعه في الإطار الذي يساهم تخيله في تحديده...وذلك لكون الطقس يهدف إلى تأدية مهمة إعطاء نتيجة...)[86].

فالناس يزورون الولي قصد الحصول على البركة أو الحماية أو الرزق انطلاقا من فكرة الوسيطية التي تطورت مع الزمن لتصبح ممارسة علاجية وغوثا وحماية وخصوبة وعطاء، لذلك كان الضريح محل استشفاء ومحل مبيت للسايلة، ومحل أداء اليمين، كما يمثل محل "حرم" يلجأ إليه المتظلم المطارد أو المجرم الهارب بنفسه أو الفتنة أو الانتقام، وهو ما أدى إلى ظهور سلوكات تدخل ضمن نمطية الزيارة.

وفي نفس المنحى التحليلي فإن تسليط الضوء على خوارق الأولياء وكرامتهم يوفر مجموعة ثقافية قابلة (للتحليل تأخذ صفة البنوي لأنه محدد لمحاولة الفهم الكلي والتوافق بين أدوار الأساطير وأوقات طقوسها وممارسها وبين الواقع والعلاقات التي توجد بين شخص الأساطير والمعطيات الثقافية والاجتماعية التي هي في الواقع الأرضية الأولى لبناء بأكمله...)[87]، فزيارة الأولياء وقت الأزمات والمحن أو قصد البركة يفسر تلك العلاقة التي تجد فيها هذه الظاهرة مكانا ضمن تاريخ الذهنيات كونه (تاريخ الأفعال وأنواعه الإرادية والواعية والموجهة إلى دراسة الأفكار وسلوك الناس ودوره في تسيير الأحداث...)[88].

واختزالا لما سبق فالولي بخوارقه وكراماته عنصرا أساسيا ومحركا فعالا للكتابة التاريخية للحياة الاجتماعية في الوطن العربي خلال العهد العثماني، ولغور سلطته في نفوس الناس كانوا يقصدونه في كل الأوقات، ويذكر الرحالة الورثلاني عن ذلك أن أهل مكة كانوا يزورون قبر الولي سيدي عمر العرابي ،(وغالب السائلين بمكة والمستصرخين إنما يهتفون باسمه وأهل البادية تسمع الرجال منهم والنساء يقولون شد لله يا عرابي وهو عندهم عظيم القدر شهير الذكر وحق له ذلك فإنه كان من أئمة الطريق رضي الله تعالى عنهم...كذا)[89].

وفي نفس السياق يحدث عن الولي أبي العباس سيدي أحمد الزروق البرنسي ثم الفاسي في مسراته مؤكدا بأنه (إليه يهرع المنكسرون على أنه حصن للضعفاء والمساكين لأنه يأخذ بيد الجميع ولم ترفي الناس من رفيق أولى منه في إصابته الحق وبيان الطريق...وبالجملة هو طبيب نبوي وترياق رباني...كذا)[90]، وهو ما يثبت مدى تفرد الشخصية الولائية، ومدى الاعتراف الاجتماعي بها ودرجة اندماجها الاجتماعي (وظهور فئة الأولياء للعيان بوصفهم شخصيات اجتماعية خارجة عن المألوف لها دورها وحضورها وتأثيرها في المجتمع)[91].من خلال السلطة الروحية و الكاريزمية.

خاتمة

تعتبر الرحلة ا لحجازية من المضان التي توفر للمؤرخ لبنات متعددة للدراسته ،حيث حفلت بقضايا و مجالات متعددة أهمها المجالات الدينية ،و منها ظاهرة زيارة الاولياء و التبرك بهم ،و الذي يعكس الاستخدام الشرعي للسلطة بطريقة القوة المقبولة اجتماعيا ،و هو ما يجعل إمكانية تجاوز المعنى السياسي لهذا المصطلح واردة حيت تستمد شرعيتها من ايمان الاخرين بقدرات الولي .

[1] ابن خلدون عبد الرحمان بن محمد ولي الدين: مقدمة ابن خلدون، تح: عبد الله محمد دويش دار يعرب، 1425-2004، ص 35.

[2] نوال عبد الرحمان الشوابكة: أدب الرحلات الأندلسية والمغربية، دار المأمون للنشر والتوزيع، الأردن، 2008، ص 159.

[3] سميرة أنساعد: الرحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري دراسة في النشأة والتطور والبنية، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، 2009، ص 280.

[4] سعيد جبار: من السردية إلى التخيلية، بحث في بعض الأنساق الدلالية في السرد العربي، ط 1، دار الأمان، الرباط، منشورات الاختلاف، الجزائر.

[5] كريستوف فولف: علم الأناسة التاريخ والثقافة والفلسفة، ط1، نقل البروفيسور المرزوقي، الدار المتوسطية للنشر كلمة، أبو ظبي، 2009، 1430هـ، ص 110.

[6] فرانسوا دوس: التاريخ المفتت من الحوليات إلى التاريخ الجديد، تر: محمد الطاهر منصوري، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط1، 2009، ص 250.

[7] BRAUDEL (F) : Civilisation matérielle économie et capitalisme : XVI-XVIII siècle, Vol 2, Les jeux de l'échange, Paris, 1979, p 114.

[8] فرانسوا دوس: التاريخ المفتت، ص 251.

[9] نفسه، ص 144.

[10] عاطف عطية: المجتمع والدين، التقاليد، بحث في إشكالية العلاقة بين الثقافة والدين والسياسة، جروس برس، لبنان، 1993، ص 48.

[11] هرسكوفيتز ميلفل: أسس الأنثربولوجيا الاجتماعية، تر. رياح النفاخ، وزارة الثقافة، دمشق، ص 20 – 21.

[12] محمود عودة: أسس علم الاجتماع، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، مصر، د ت، ص 118.

[13] عاطف عطية: المجتمع والدين، التقاليد، بحث في إشكالية العلاقة بين الثقافة والدين والسياسة، جروس برس، لبنان، 1993، ص 89.

[14] جلال مدبولي: الاجتماع الثقافي، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، 1979، ص 79.

[15] فريدريك معتوق: المعرفة المجتمع والتاريخ، جروس برس، طرابلس، 1991، ص 116.

[16] ايكه هولتكراس: قاموس مصطلحات الإثنولوجيا والفولكلور، تر. د. محمد الجوهري، ود. حسن الشامي، ط 2، الهيئة العامة لقصور الثقافة، 1972، ص 128.

[17] مصطفى شاكر سليم: قاموس الأنثروبولوجيا، إنجليزي-عربي، ط1، الكويت، 1981، ص 65.

[18] كريستوف فولف: علم الأناسة، ص 196.

[19] نفسه، ص 235.

[20] فرانسوا دوس: التاريخ المفتت، ص 273.

[21] نفسه، ص 274.

[22] ميشال فوكو: حفريات المعرفة، ط 2، تر: سالم يفوت، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، الدار البيضاء، المغرب، 1987، ص 39.

[23] إميل دوركهايم: في التقسيم الاجتماعي للعمل، تر: حافظ الجمالي، اللجنة اللبنانية للترجمة الروائع المكتبة الشرقية، بيروت، 1986، ص 86.

[24] ميشال فوكو: حفريات المعرفة، ص 57.

[25] مصطفى تيلوين: مدخل عام إلى الأنثروبولوجيا، ط1، منشورات الاختلاف الفارابي، لبنان، 2011، ص 75.

[26] هو الرجل المقدس الذي يعتقد أنه له قوى خارقة يستطيع شفاء المرضى وأنه يضفي البركة ويزور المسلمون الأفارقة قبورهم للتبرك والصلاة فيها كما أنهم يعتقدون بوجود طبقات متفاوتة الدرجات من الأولياء وأن عددهم أربعة آلاف ولي. أنظر/ شاكر مصطفى سليم: قاموس الأنثروبولوجيا، ص 1025.

[27] عباس الجواري: الحضور الديني في العادات والتقاليد المغربية، من العادات والتقاليد في المجتمع المغربي، ندوة لجنة القيم الروحية والفكرية، مراكش 26 شوال 7/1428 نوفمبر 2000، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، سلسلة ندوات مطبعة المعارف والجديد، الرباط، 2008، ص 43.

[28] Pierre Bourdieu: Genèse et structures du champs religieux, Revue Française de sociologie 1971, p 21.

[29] أحمد المقري: رحلة المقري إلى المغرب والمشرق، تح: محمد بن معمر، مكتبة الرشاد، الجزائر، 2004، ص 13.

[30] الورثلاني: الرحلة، مج 1، ص 43-44-46.

[31] نفسه، ص 218.

[32] نفسه، ص 228.

[33] نفسه، ص 289.

[34] نفسه، ص 70-71.

[35] نفسه، مج 2، ص 70-72.

[36] كريستوف فولف: تاريخ الأناسة، ص 122.

[37] بلاد تقيف سميت بذلك لما لأنها طافت على الماء في الطوافات أو لأن جبريل عليه السلام طاف بها على البيت أو لأنها كانت بالشام فنقلها الله تعالى إلى الحجاز بدعوة إبراهيم الخليل عليه السلام. أنظر رحلة الورثلاني، ص 362.

[38] الورثلاني: الرحلة، ص 362-363.

[39] نفسه، ص 366-367.

[40] محمد بن عبد الكريم المغيلي المعروف بالشيخ المغيلي من تلمسان المولود سنة (820هـ/1417م) رحل إلى تمنطيط واستقر بأولاد يعقوب سنة 882هـ/1478 وتوفي سنة (909هـ/1503م)، وهو بزاوية كنتة. أنظر أحمد بابا التمبكتي: غاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج، ص 455.

[41] عبد الرحمان التنلاني: رحلة الشيخ التنلاني إلى الحج (1188م-1174)، دراسة للأبعاد الجغرافية والسوسيواقتصادية للمغرب الإسلامي، دراسة وتحقيق خير الدين شترة ودرار عبد الرحمان، منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، الجزائر، قسنطينة، عاصمة الثقافة العربية، 2015، ص 01. هو عبد الرحمان بن عمر بن محمد التنلاني: عالم جزائري من منطقة تنلان، بأدرار، زبر رحلته إلى الحجاز

بعد تنقله لأداء فريضته، أنظر أنظر محمد بن عبد الكريم التمنطيطي: جوهر المعاني في تعريف علماء الألف الثاني، مخطوط الخزابة بتمنطيط، أدرار، الورقة 39.

أنظر هو ابن بحمان بن أبي محمد بن عبد الله بن عبد العزيز التميني السبحيني المصعبي: عالم ورحالة جزائري من منطقة يسجن وقطب من أقطاب بني ميزاب له رحلة حجازية ألفها لما انتقل إلى الحج سنة 1196م-1781هـ. أنظر إبراهيم بن بحمان المصعبي: رحلة

[42] التنلاني،الرحلة، ص 2-3.

[43] عبد الله العروي: الجذور الاجتماعية والثقافية للوطنية المغربية، مدخل إلى تاريخ المغرب الحديث، دار المناهل، د.ت، ص 15.

[44] محمد حجي: الزاوية الدلائية و دورها الديني و السياسي،ط1، الرباط،1409، ص 18.

[45] صفة يطلقها المجتمع على أشياء وأماكن وأعمال يعتبرها واجبة الاحترام فيقيم لها طقوس دينية لاعتقاده باتصالها بعبادة الآلهة أو لأنها ترمز إلى القيم الأساسية للمجتمع ولذا فهي مصونة من العبث والتخريب ويختلف تصنيف الأشياء والأماكن والأعمال إلى مقدس وغير مقدس باختلاف الجماعات، وفقا لما تتواقع عليه. أنظر مصطفى شاكر سليم: قاموس الأنثروبولوجيا، ص 39.

[46] عبد الرحيم العطري: بركة الأولياء، بحث في المقدس الضرائحي، شركة النشر والتوزيع المدارس، الدار البيضاء، 2014، ص 30.

[47] بول باسكون: الأساطير والمعتقدات بالمغرب، تر: مصطفى الحسناوي، مجلة بيت الحكمة، ع3، الرباط، 1986، ص 96.

للاستزادة: أنظر لبصير سعاد: هجرة ونفي أهل العلم والدين من الجزائر، ص 21.

[48] الناصري: فتح الإله، ص 44-46.

[49] هو الشيخ حمو بن قاسم العرداوي المصعبي المتوفى 1716/1129. أنظر/ معجم أعلام الإباضية، ج4، ص 760.

[50] المصعبي إبراهيم ابن بحمان : الرحلة، تح وتع ،يحي بن بهون حاج امحمد،صدر هذا الكتاب في اطار الجزائر عاصمة الثقافة العربية ،2007،البيت 16-17، ص.39

هو ابن بحمان بن أبي محمد بن عبد الله بن عبد العزيز التميني السبحيني المصعبي: عالم ورحالة جزائري من منطقة يسجن وقطب من أقطاب بني ميزاب له رحلة حجازية ألفها لما انتقل إلى الحج سنة 1196م-1781هـ. أنظر إبراهيم بن بحمان المصعبي: رلحة المصعبي،43.

[51] جوزيف بيتس: رحلة جوزيف بيتس الى مصر و مكة المكرمة و المدينة المنورو ،تر،عبد الرحمن عبد الله الشيخ،الهيئة المصرية،1995، ص 43.

[52] أنظر كريستوف فولف: علم الأناسة، ص 140.

[53] نيلي سلامة العامري: الولاية والمجتمع، مساهمة في التاريخ الاجتماعي والديني لإفريقيا في العهد الحفصي، ط2، دار الفارابي، بيروت، لبنان، 2006، ص 355.

[54] نفسه، ص 356.

[55] الورثلاني: الرحلة، مج 2، ص 95-96.

[56] نفسه، ص 98-99.

[57] نفسه، مج 3، ص 76.

[58] محمد جنبوني: الأولياء في المغرب الظاهرة بين التجليات والجذور التاريخية والسوسيوثقافية، مطبعة دار الفردوس: المغرب، 2004، 1457، ص 09-10.

[59] كليفورد غيرتز: تأويل الثقافات،تر،محمد بدوي،المنظمة العربية للترجمة ،بيروت، ص 225.

[60] نفسه، ص 226.

[61] جاك لوغوف: التاريخ الجديد، ص 297.

[62] محمد حجي: الزاوية الدلائية ودورها الديني ، ص 36.

[63] سعاد لبصير: هجرة ونفي أهل العلم والدين من الجزائر خلال العهد العثماني، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث تحت إشراف د-كمال فيلالي، جامعة منتوري قسنطينة، 2008-2009، ص 26.

[64] القرآن الكريم: سورة آل عمران، الآية 37.

[65] أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن المغيرة بن بردز بابن بذد بن الجحفي، البخاري: كتاب المضالم، المكتبة البخارية، د.ت، الباب 35. للاطلاع أكثر على كرامات الأولياء أنظر كتاب "كرامات

الأولياء للإمام النبهاني إذ أورد أربعا وخمسين كرامة للصحابة الكرام رضوان الله عليه واستدل في ذلك بأدلة قطعية من الكتاب والسنة فعرف الولي ومقامات الأولياء في نحو 127 صفحة.

[66] صحيح البخاري، الباب 35.

[67] الورثلاني: الرحلة، ص 10.

[68] نفسه، مج 2، ص 96.

[69] محمد حجي: الزاوية الدلائية، ص 54-57.

[70] الورثلاني: الرحلة، ص 14. للاستزادة عن الكرامات أنظر الورثلاني: الرحلة، مج 2، ص 78-80.

[71] أبو العباس الغبريني: عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تح: رابح بوكار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ص 102.

[72] سمية مزود: المجاعات والأوبئة في المغرب الأوسط (588-927هـ/1192-1520م)، مذكرة ماجستير، جامعة قسنطينة، 2009/2008، ص 174.

[73] الورثلاني: الرحلة، ص 16.

[74] نفسه، ص 150.

[75] محمد بن أحمد أبي راس الناصري: فتح الإله ومتنه في التحدث بفضل ربي ونعمته، تح: محمد بن عبد الكريم الجزائري، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ص 61.

[76] نفسه، ص 63.

[77] الورثلاني: الرحلة، ص 158.

[78] نفسه، ص 19-20.

[79] Cappillani (X) : Les confréries religieuses,musulmans alger1897 p 312.

[80] عبد الله عبد الرحمان: علم الاجتماع الاقتصادي (النشأة والتطور)، ج1، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر، 1994، ص 302.

[81] إبراهيم أبو الغار: علم الاجتماع السياسي، ط1، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، 1979، ص 66.

[82] حنان علي عواضة: السلطة عند ماكس فيبر، مجلة الأستاذ، العدد 206، المجلد الأول، 2013م/1434هـ، ص 8.

[83] عبد الله عبد الرحمان: تطور الفكر الاجتماعي، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر، د.ت، ص 370.

[84] بيار يؤثث وميشال إيزار: معجم الإثنولوجيا، تر،مصباح الصمد،مجد للنشر و التوزيع ،2006-1427ص 71.

[85] قباري محمد إسماعيل: الاتجاهات المعاصرة في مناهج علم الاجتماع، ط1، دار الطلبة العرب، بيروت، لبنان، 1969، ص 591.

[86] يؤثث وإيزار: معجم الإثنولوجيا، ص 63.

[87] جاك لوغوف: التاريخ الجديد، ص 486.

[88] نفسه، ص 279.

[89] الورثلاني: الرحلة، مج 2، ص 356.

[90] نفسه، مج 1، ص 356.

[91] نيلي سلامة العامري: الولاية والمجتمع، مساهمة في التاريخ الاجتماعي والديني لإفريقيا في العهد الحفصي ، ص 16.